أخلاقيات..

أهل الحرم - الجزء ٢

الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

إعداد

مكتبة الحرم المكي الشريف

إنتاج

إدارة المطبوعات والنشر

لماذا وجهه مكشوف يا أبي ؟..

أجزم أنّني أستطيع أن أؤلّف مجلداً كاملاً من كثرة أسئلته التي لا يتوقّف عن طرحها طول طريقنا إلى المسجد الحرام!!

وفوق هذا يغضب إذا تجاهلته من كثرة إملاله .. قائلاً: لماذا لا تحبّني يا أبي؟

تأسرني براءته ويعجبني حبّ استطلاعه وحرصه على المعرفة! ويخلب فؤادي عفويّته في طرحه وكثرة ملاحظته لما يدور حوله!

بالفعل يحتاج أطفالنا منّا لفتة أبويّة تراعي اهتماماتهم وإن كانت تافهة في أنظارنا .. لأنّها حتماً ستؤثّر في بناء شخصيّاتهم وطريقة تعاملهم معنا ومع المجتمع مستقبلاً؟!

عوّدته أمّه إذا أكثر كلامه في البيت أن يستغفر الله ويصلّي على النبي صلى الله عليه وسلّم!

فوجدته مخرجاً ومهرباً !! فقلت: يا بني لقد تكلّمت كثيراً .. الآن جاء وقت الاستغفار؟! استغفر الله استغفر الله! فردّ بعفويّة مباشرة: إذا وصلنا الحرم سأستغفر كثيراً إن شاء الله يا أبي!

قل لي إيش هذا يا بابا؟ ولماذا هذا يا بابا؟ رجع لأسئلته التي لا تنتهي وكأنّي لم أكلّمه! يا الله من هذا الطفل!؟

أخيراً وجدتّ حلاً؟!

لماذا وجهه مكشوف يا أبي؟

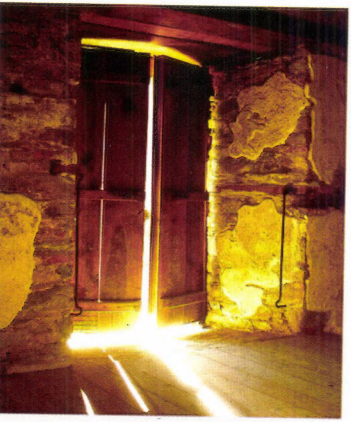

يا بني عندي ريالات ما رأيك كلّما رأيت مسكيناً تخبرني حتّى نعطيه ريالاً؟

مباشرةً: بابا هذا مسكين؟ فقلت : لا .. طيّب هذا مسكين؟ قلت: لا .. شكله ذاك مسكين؟ فقلت: أنا المسكين يا ولدي .. أنا المسكيييين!!

فقال: عندي حلاوة خذها! لم أتمالك نفسي من الضحك! يا له من ولد فيلسوف!!

وصلنا الحرم وأنا مستمتع معه بنجاح خطّتي الأخيرة للقضاء على سيل استفساراته!! وهي أن يسلّم مؤشّراً بيده: السلام عليكم .. من بعيد! على كلّ من يمرّ عليه في الطريق! وبعدها ارتحت منه وكسبت بسلامه سيلاً من الحسنات والدعاء!

بدأنا بالطواف ومن غير أن أكلّمه رفعت صوتي بالاستغفار فعرف مرادي وبدأ يستغفر بصوت عالٍ .. حتى لفت نظر الطائفين! هداه الله وأصلحه! فجعلوا يبادلونه بالابتسامات!

فهذا يمسح على رأسه وذاك يهديه حلوى حتى أتى أحدهم وجعل في جيبه عشر ريالات .. فردّ على الرجل ببراءة «بابا» كذلك يقول: أستغفر الله؟!! فقلت: يا ولد عيب! نحن نستغفر حتى ندخل الجنّة وليس من أجل عشر ريالات! فقام مباشرة وألقى العشرة من جيبه! فقلت: يا ولد خذ الفلوس! فقال: عيب يا بابا ما تبغى الجنّة! لا أدري أين أخفي وجهي الذي

لماذا وجهه مكشوف يا أبي ؟

تلوّن بألوان الطيف من إحراجات هذا الفيلسوف الصغير!! حتّى ضحك الرجل وقال –ليخرجني من المأزق– هذه هديّة لك يا بني! وليس من أجل الاستغفار! فقال: بابا ما له هديّة؟! قرصته من ظهره! فأضطرّ الرجل أن يخرج من جيبه عشرة ثانية وقال هذه لبابا!! غمز لي الرجل حتّى لا أعاقبه .. وما أظنّه إلاّ أنّه أشفق عليّ من إحراجه وليس عليه من عقابي!!

صلّينا العشاء في مكان وكانت الجنائز خلفنا تماماً .. وبعد الصلاة نادى المنادي لصلاة الجنازة بدأ الناس يصطفّون خلف الجنائز!

غفلت عن ابني قليلاً .. فجأة التفتّ حولي لم أجده! طاش عقلي؟ فجعلت ألتفت أبحث عنه اضطررت أن أصوّت باسمه! فأجابني من عند إحدى الجنائز .. أنا هنا يا بابا! طفح كيلي من تصرّفات هذا الطفل!

فلّما أقبلت إليه لأجرّه من أذنه! سبقني بسؤال مفاجئ: لماذا وجهه مكشوف يا أبي؟ لم أنتبه من الوهلة الأولى لما لاحظه! بالفعل نظرت إلى الميّت فإذا وجهه مكشوف كلّيّاً! ارتبكت في مكاني من المنظر غير المألوف الذي أراه لأوّل مرّة! علماً بأنّ بقيّة الجنائز كلّها مغطاة كالعادة إلاّ هذه الجنازة! فازددت حيرة من الموقف ومن سؤال صغيري!!

كان المنظر مؤثّراً جدّاً وقد ازدحم الناس عليه ينظرونه ويترحّمون عليه وقد علاه النور –رحمه الله–!!

سحبته واصطففنا خلف الجنائز استعداداً للصلاة عليها .. شغلني سؤاله!

لماذا وجهه مكشوف يا أبي؟

الذي أصبح الآن سؤالي أيضاً! لماذا وجهه مكشوف؟!

بعد الصلاة عاودني السؤال ولكن بطريقة أخرى وفي طيّاته الإجابة! نظرت إليه بإعجاب وقد غمرني الحبّ نحوه! فحضنته!

لأنّي في الحقيقة أعترف أنّي استفدتُ هذه المعلومة ولأوّل مرّة من ابني الرائع!! ولا أتمنّى أن تكون الأخيرة! فليس في الدنيا أروع من أن ترى ابنك أعلم منك ..

تذكّرت حينها مقولة حبر الأمّة وترجمان القرآن الفقيه الصغير ابن عبّاس -رضي الله عنهما- حين سئل: بما أوتيت العلم؟! فقال: بقلب عقول ولسان سؤول!!

قرّرت ساعتئذ فقط أن لا أملّ من أسئلته واستفساراته وإن بلغت أسفاراً ومجلّدات!

فما هو سؤاله؟ قال: بابا نحن كذلك إذا كنّا حجّاجاً ومتنا يكون وجهنا أيضاً مكشوفاً مثل هذا الحاج؟!

فقلت: إيش عرّفك إنّه كان حاجّاً؟ من أخبرك؟

فأجاب ببراءة: رأيت الإحرام عليه تحت الغطاء! فعرفت أنّه حاج!

فقلت: صدقت يا بني هذا هو السبب بالفعل .. وقد ذكّرني بحديث ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : (أَنَّ رَجُلاً كَانَ مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه

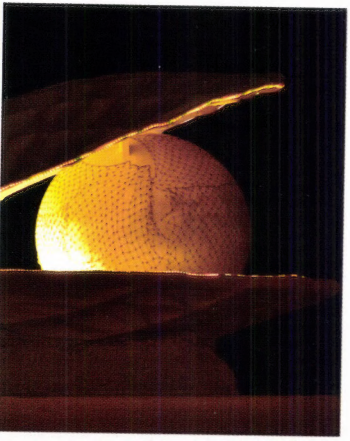

لماذا وجهه مكشوف يا أبي؟

وسلم - فَوَقَصَتْهُ نَاقَتُهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ فَمَاتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ - أي إزاره ورداءه - وَلاَ تَمَسُّوهُ بِطِيبٍ ، وَلاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ وَلاَ وَجْهَهُ - إذا كفّن- فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا)) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم.

فقلت: أحسنت يا بني فكل من يموت حاجّاً أو معتمراً لا يغطّى رأسه ولا وجهه!

فقال: لماذا يا أبي؟ فقلت: لأنّه يبعث يوم القيامة وهو يقول الكلمة التي يحبّها الله ويحبّها جميع الحجاج؟ فبادرني قائلاً: لبيك اللهم لبيك؟! فقلت: نعم ..

فقال: ليش الله يحب هذا الكلام؟!

فقلت: لأنّ فيها توحيد الله!!

فمعنى :

- (لبيك اللهمّ لبيك) .. أجبتك وأسمع كلامك إجابة بعد إجابة يا الله!
- (لبيك لا شريك لك لبيك) .. يعني: يا الله أنت واحد أحد لا ثاني لك ولا شريك لك وما أحدٌ مثلك ولا يوجد أحدٌ يشبهك ولا ملك غيرك ولا يوجد أحد نعبده بحقّ سواك ..
- (إنّ الحمد والنعمة لك والملك) .. معناها : الحمد لله عند كلّ

لماذا وجهه مكشوف يا أبي؟

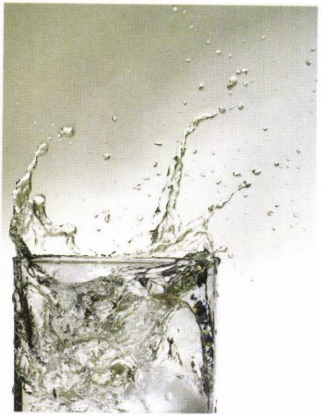

نعمة وعند كلّ مصيبة أيضاً .. وكلّ النعم من أكل وشرب ولبس وسيارة كلّها من عند الله .. فقال: حتّى ألعابي من الله وحتّى كل شيء!!

والله هو يملك كلّ ما في هذه الدنيا يا بني .. فقال حتّى أنا؟! فقلت: حتّى أنت وأنا وماما وكلّ الناس!!

- (لا شريك لك) ..

نظر إليّ بحبّ وقال كلمة تسوى عندي الدنيا وما فيها .. الله يخليك لنا يا بابا! يا رب نموت حجّاج! فقلت: يا رب نموت شهداء! فقال: الشهداء يكون وجههم مكشوف كمان؟! فضحكت وقلت: نعم ..

فقال: يا رب نموت حجاج ونموت شهداء ونموت معتمرين!! فقلت: كم مرّة تبغى تموت! فقال: كثير .. حتى نجي يوم القيامة على عدّة أشكال!

فقلت في نفسي: لا أستطيع مجادلة هذا الصبي .. قم لنرجع إلى البيت فماما وأختك الفيلسوفة الصغيرة ينتظرونا!! فقال: هيّا وسبقني وأخذ كأسين من ماء زمزم ومضى يمشي بخطواته الصغيرة أمامي وقد تصبصب نصف الكأس .. فتركته! لأنّه حتماً سيقول لي: هذه لماما ولهذه لأختي!!

اللهم احفظ لنا صغارنا وأنشئهم منشأً صالحاً وأنبتهم نباتاً حسناً وأقرّ بهم أعيننا وانفع بهم الإسلام والمسلمين ... آمين

وظيفة مرموقة!

.. وظيفةٌ مَرمُوقة ..

أصبح أحوج ما يحتاج إليّ في هذه الفترة .. وقد وهن عظمه واحدودب ظهره وضعف بصره ..

رفعت أوراقي مراراً كي أنقل عملي إلى مكّة .. وبالتحديد في المسجد الحرام .. كانت أمنية والدي أن يراني قريباً منه .. فقد كان كأحد حمام الحرم في لزومه الصفّ الأوّل في المسجد الحرام!

كان يُرفض طلبي دائماً بحجّة أنّي متميّز والخدمة العسكريّة التي أنا فيها بحاجة إليّ ولا يوجد أحدٌ برتبة «لواء» يغطّي الثغرة التي أنا فيها!

كنت أسلّي نفسي دائماً بأحاديث فضل الرباط في سبيل الله على الاعتكاف والعبادة ..

كنت أتّصل به يوميّاً للاطمئنان على صحّته ..

كان كلامه قليلاً جدّاً .. ولكنّه كان بالنسبة لي بلسم الحياة .. ودعواته في ختام الاتّصال مراكب التقدّم والسمو في حياتي!

بعد وفاة الوالدة -رحمها الله- منذ عشرين عاماً ازدادت حاجته لقربنا .. كان رجلاً قنوعاً وشخصيّته قويّة فلذا لن تلمس في كلامه الضعف والحاجة لأحد من أولاده وبناته .. وقد ربّانا على قوّة الشكيمة وعزّة النفس!

كان أسعد يوم في حياته آخر جمعة من كلّ شهر حين يجتمع حوله كلّ أبنائه وبناته وأحفاده ..

وظيفة مرموقة !

ومع هذا ربّما نضطرّ أحياناً إلى التغيّب لظروف العمل العسكري والسفر الأسبوعي!

يعذرنا الوالد دائماً .. ولكن الأمر الذي يقطّع قلبي سؤاله الدائم عنّي أكثر من البقيّة ..

وإذا حضرت اللحظة يطيل النظر في وجهي دائماً .. وأحياناً تغرورق عيناه بالدمع! محاولاً إخفائها بتغيير الحديث والسؤال عن أحفاده!!

وبين الحين والآخر يسترق النظر للتأمّل في وجهي .. وكانت نظراته مليئةٌ بالاستفهامات ..

أقرأ في عينيه وقسمات وجهه أمنيات ورغبات .. لا يحبّ البوح بها!

ضعف سمعه كثيراً حتّى أصبح لا يسمع إلاّ بصعوبة بالغة .. ولا يفهم كلامي عند اتصالي! فقررت حينها أن أخفّف عليه الاتّصال! شفقة به!

حتّى كان ذلك اليوم الذي اتّخذت فيه أصعب قرارٍ في حياتي .. عفواً بل أسعد قرارٍ في حياتي!

على غير ميعادٍ انتبهت نصف الليل كأنّ أحدهم يوقظني من نومي وينادني!

جعلت دموعي تنساب إلى الوسادة ولا أدري ما سبب بكائي .. ولكن كلّ الذي أحسّ به تلك اللحظة أنّي اشتقت إلى أبي الحبيب!

وظيفة مرموقة!

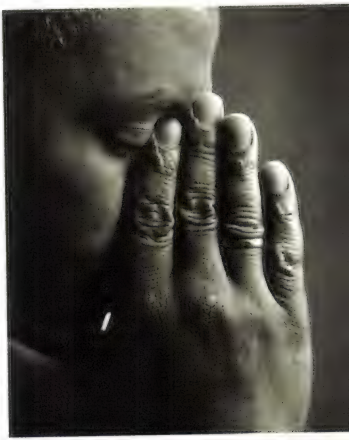

خرجت من غرفتي واتّجهت مسرعاً نحو غرف أبنائي وبناتي .. كلٌّ في سريره -والحمد لله- اطمأننت على الجميع!

حينها تساءلت كيف يكون حالي إذا فوجئت بأحدهم غير موجود أو اختلس من فراشه واختفى؟! كيف يكون شعور الأب حينها؟!

يا لله .. كيف بي إذا اختفى الجميع من حولي فجأة وأصبحت وحيداً بين الجدران .. أسمع صوتهم في كلّ ركن من أركان البيت ولا أراهم!

أشمّ رائحتهم في كلّ جدار ولا أجدهم!

أتخيّل أنّي أضمّهم فأجري نحوهم في مساحات القلب المجروح .. فأناديهم بأسمائهم واحداً واحداً ولا أحد يلتفت إليّ!!

جلست في الصالون وقد ازداد خفقان قلبي .. ورجلاي لا تكاد تحملاني .. ودموعي لا ترقأ!

بدأت أجهش بالبكاء كالطفل -وأنا الرجل الحديدي الذي لا يعرف الضعف ولا البكاء- !

بل لم يكن ضعفاً ولكنّها روح سرت في جنح الظلام مع زفرات الدعاء من قلب مكلوم فحلّت فيّ!!

كم سهر الليالي من أجلنا! لم يكن يهنأ بالنوم حتّى يطمئنّ على أبنائه جميعاً!! كم تعب من أجل تعليمنا! وكم تحمّل من أجل راحتنا! رفض

وظيفة مرموقة !

الزواج بعد وفاة الوالدة كلّ ذلك من أجلنا .. حتّى بلغنا المناصب المرموقة أنا وإخوتي ما بلغنا!

ولكن ماذا يريد من مناصبنا التي حرمته من أبنائه!؟

كأنّي بأبي الحبيب يمرّ كلّ يوم على حُجرنا فلا يرى أحداً ممّن كان يحبّهم فيها! خلت الدار ولم يبق فيّها إلاّ الهباب وذكريات الأحباب!!

ارتفع صوتي بالبكاء حتّى استيقظ جميع من في البيت!

فزع الجميع .. أبي! أبي! ما بك؟

جعلت أصرخ مثل الأطفال .. أريد أبي .. أريد أبي!

لم يتمالك الجميع! ضجّ البيت بالبكاء! وجعلوا يقبّلون رأسي وقدمي ويدي! يهدؤونني!

أحسست بالأبوّة وآلام الفقد حينها !!

لم أفق إلاّ مع إعلان زوجتي -حفظها الله- وجميع أبنائي وبناتي!

سنرجع كلّنا إلى مكّة .. ونعيش كلّنا مع جدّنا .. لا حاجة لنا في الدنيا غير أن نكسب رضى والدنا وجدّنا الغالي!

أبي الحبيب انطلق إلى مكّة واسبقنا إلى جدّنا .. سنرتّب أمورنا ونلحق بك عاجلاً ولا تقلق علينا!

وظيفة مرموقة!

رجعت البسمة في وجهي وعلتني الفرحة وغمرني الحب والسعادة!

قمت لآخذ الهاتف لأحجز الطائرة إلى مكّة .. سبقني ابني الكبير وقال: الساعة العاشرة صباحاً يا أبي رحلتك إلى مكّة!

دخلت غرفة النوم فرأيت زوجتي وابنتي الصغيرة يرتبّان حقيبة السفر!

صلّيت الفجر وانطلقت مبكّراً إلى عملي!!

أكملت أعمالي وكلّفت بالباقي بعض الضبّاط!!

كتبت خطاب استقالتي! وكلّفت من يقوم باستكمال إجراءاتها!!

انطلقت إلى المطار وفوجئت بجميع أبنائي وبناتي وتتقدّمهم أمّهم! في انتظار توديعي هناك.. لم أملك نفسي من البكاء!

تقدّمت الصغيرة وفي يدها هديّة قائلةً .. هذه هديّتي لجدّي أمانةً مني إليك لتوصلها إليه!

ثمّ تقدّم البقيّة وفي يد كلّ واحدٍ ما يعبّر به عن رضاهم لقراري المصيري!

كانت الدموع هي اللغة الوحيدة التي أردّ عليهم بها!

ركبت الطائرة .. يالها من طائرة بطيئة بطء السلحفاة!

أصبح الوقت يمرّ ببطء شديد!

وعلى أيّة حال .. وصلت إلى مكّة عند صلاة الظهر!

وظيفة مرموقة!

صلّيت واتّجهت إلى مكانه في الحرم مباشرة!

يسبق خطايَ قلبي وروحي!

لاحظ بي خادمه فهرول نحوي يسلّم عليّ!

قلت: أين أبي؟

فأشار نحوه بحزن!

فوقفت خلفه! لأجده وقد أمسك بالهاتف المحمول (الجوّال) بيده التي ترتعش من شدّة الضعف، يقلّب فيه! ويضعه على أذنه تارةً وينظر إليه تارّة أخرى! فقلت: ما به؟

فقال: هذا حاله منذ أوقفت الاتّصال عليه!

ينظر إلى الجوّال ويبكي وينتظر اتّصالك بعد الظهر في الوقت الذي اعتاد سماع صوتك فيه!

جثوت على ركبتيّ وانحنيت أقبّله من قدميه إلى رأسه .. سقط الجوّال من يده وهو ينظر إليّ بدهشة واستغراب!!

بدأ يمسح على رأسي وخدّي وكأنّه غير مصدّق أن يراني بين يديه!

أسبل دمعة ساخنة سخونة شوق الأب لفلذة فؤاده عند لقاءه بعد طول فراق ..

وظيفة مرموقة!

ارتميت في حضنه .. جعل يخلّل أصابعه في شعري ولحيتي!

ثمّ زفر ببوح السنين من طول المرارة والأنين!!

فقال: أنا أب .. ولي كيان وأحاسيس ومشاعر!

أتمنّى ما يتمنّاه كلّ أب من رعاية وعناية ابنه به وقد أكل عمره الزمن! وسقط حاجباه على عينيه!

أتمنّى أن أتّكئَ على ابني وأتهادى على كفّه حين أمشي!

كلّ من في سنّي انظر إليهم .. لا أظنّ أنّ هناك من بلغ ما بلغ أبنائي وبناتي من المناصب!

ولكنّهم بلغوا أمنياتهم برعاية أبنائهم لهم! فارتقوا هم في مراقي السيادة ببرّ أبنائهم لهم!

يا بني: لم حرمتني من اتصالك وسماع صوتك؟

ألئنّ سمعي قد ضعف؟!

أتدري يا بني ما سبب ذلك؟!

لأنّي كلّ ليلة أناديكم واحداً واحداً بأعلى صوتي كلّ ذلك أملاً أن أسمع أحداً يجيبني قائلاً: نعم يا أبي هل من خدمة؟!!

حرمت سماع أعظم كلمة يحبّ أن يسمعها كلّ أب! فدعوت الله أن يذهب

وظيفة مرموقة!

بسمعي! حتى أجد عذراً لكم أنّكم ربما أجبتموني وأنا الذي لم أسمع!!

حشرجت الكلمات في صدري .. فقلت: يكفي .. يكفي يا أبي!

سامحني .. سامحني .. لقد عاهدتّ الله يا أبي أن أكون بجانبك ما بقيت!!

لقد قدّمت استقالتي وسأبدأ من اليوم في وظيفتي الجديدة .. وهي أن ألزم قدميك وأغسل بدموعي رجليك وألثم العتبة التي تطأها! ما بقيت!

اقبلني يا أبي! ولا تردّني!

قال: ووظيفتك وأهلك وعيالك يا ولدي؟!

فقبل أن أجيب!

فإذا بزوجتي -حفظها الله- واقفة خلفنا وتقاطع حديثنا - وقد استقلّت الطائرة مع ابني الكبير وأنا لا أدري! - فتقول: قررنا كلّنا يا عمّي أن ننتقل إلى مكّة حتى نعيش معك!

فرح أبي فرحاً شديداً وقد أشرق محيّاه .. فسجد شكراً لله على أن حقق الله مناه!!

وفي أثناء خروجنا من الحرم جاءني اتّصال من جهة عملي يخبرني!! بأنّه تمّ قبول طلبي وقد تمّ نقلي للعمل في مكّة! ابتداءً من يوم غد!

فاعتذرت إليهم قائلاً: لقد وجدتّ «وظيفة مرموقة!!» فأنا الآن فيها ولا أستطيع أن أتركها مهما كان!!

هل شاهدت الأطباق الطائرة في مكة ؟

.. هل شاهدت الأطباق الطائرة في مكة ؟ ..

حتّى لا يذهب ذهنك بعيداً .. إلى تلك الأطباق الفضائيّة الخرافيّة التي ملأ الغرب قنواتهم وأفلامهم بها .. ويأتون بعد كلّ فترة بأضحوكة منها لكي يسيطروا على عقول العامّة .. فإنّ الأطباق المكّيّة التي تسمو بالروح إلى الفضاء هي نوع آخر !!

هي أطباق تراها كلّ يوم في شهر رمضان قبل المغرب تطير من بيت إلى بيت في منظر يخلب الفؤاد ويأسر القلوب! تراها أيضاً تتّجه نحو المساجد وتمتلئ بها ساحات وأروقة المسجد الحرام بل كلّ بقعة منه!

إنّها تعكس صورة الحياة الاجتماعيّة وروح المحبّة والألفة السائدة في مجتمعاتنا الإسلاميّة .. تجد الجار مع بيت جيرانه يعيشون كالأسرة الواحدة وتربط بهم وشائج المحبّة أكثر من القريب البعيد!

كيف لا وقد حثّنا الإسلام على معاملة الجيران كمعاملة الوارث من الإخوان ((وما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه)) .

كنّا نعود من حلقات تحفيظ القرآن قبل المغرب وتنتظرنا الوالدة بطابور من الأطباق المتنوّعة بطعام الإفطار لنطير بها إلى بيت فلان ومنزل عم فلان وخاله فلانه .. ولم نكن ننادي كبار الحارة ولا نعرفهم إلاّ بجدّي أو عمّي أو خالي!

فبمجرّد أن تخرج في تلك اللحظة وتصل وسط الحي إلاّ وتجد الأطباق

هل شاهدت أطباق الطائرة في مكة ؟

الطائرة من هنا وهناك مع أطفال وبنات الحارة حتى تكاد تختلط الصفوف ببعضها من كثرتها.

وهناك بعض كبار السن في مركازهم من الذين يعكرون على الصغار صفوهم بتفتيش أطباقهم -تعال أشوف أمّك إيش طبخت؟- ويؤخرونهم .. من باب الدعابة معهم!

وهذا الحراك المجتمعي من العادات الجميلة التي ما زالت باقية إلى وقتنا الحاضر في مكّة وأحياءها الشعبيّة.

أمّا طبق مسجد الحارة فهو فرضٌ يوميٌ يجتمع عليه فقراء الحارة والعمالة والكثير من المعتمرين .. ويشاركهم المؤذن والإمام وفي أحيان كثيرة أعيان الحارة أيضاً.

أتذكّر في يوم من الأيّام بل لا أنسى ذلك اليوم الذي وزّعت فيه أمّي كلّ الإفطار ولم تبقِ لنا سوى التمر وشربة زمزم المبخّر بالمستكة ..

حتّى السمبوسة التي أحبّها لم تبق لي حبّةً واحدة منها!

أطلّت أمي من الروشان فرأت مجموعة من المعتمرين وصلوا لتوّهم إلى مكة وقد أرهقهم طول السفر وأعياهم حرّ الهجير والصوم الطويل فيه!

وفي حالة استنفار سريعة أعدّت أمّي وأخواتي وجهزن أكثر من خمسين طبق منوّع وضعت فيه كلّ ما في البيت! ثمّ أرسلتني وإخوتي إلى المعتمرين لنوزّعها عليهم!

هل شاهدت أطباق الطائرة في مكة ؟

كانت أمّي تنظر إلينا من الروشان وهي ترى تلك الدعوات التي ترفع من أجلنا من أولئك الذين تحققت فيهم ثلاثة مواطن لتحقّق الإجابة لدعائهم :

1. السفر: ((ثلاث دعوات لا ترد ومنها: دعوة المسافر))
2. الصوم: ((للصائم دعوةٌ لا تردّ عند فطره))
3. العمرة: ((الحجّاج والعمّار وفد الله دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم))

كانت دموع الوالدة تنهمر من الفرح على خدّيها! وهي ترى توفيق الله عليها وعلى عيالها في تطبيق حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم: ((من فطّر صائماً كان له من الأجر مثل أجره لا ينقص ذلك من أجره شيء))

رجعنا البيت للإفطار على الماء والتّمر .. وكنت متذمّراً قليلاً لأنّي محروم من السمبوسة ذلك اليوم، فجعلت والدتي الحبيبة تسلّيني قائلة: الله يرزقك يا ولدي عروسة تسوّيلك مدينة سمبوسة وتجبلك أولاد حلوين زيّ البسبوسة!! ضحك الجميع عليّ وأنا مكفهرٌّ لا أتكلّم ..

وقبل أذان المغرب فجأةً يطرق أحدهم الباب .. قامت أمّي بنفسها لفتح الباب -وفي العادة كنت أنطلق لفتحه مسرعاً ولكنّ الحرمان من السمبوسة صعب- فقالت: يا ولدي جاك الخير يا طير .. شوف السمبوسة رجعت إليك! فقمت إليها مسرعاً لأساعدها وقد اخذ عقلي رائحة السمبوسة الشهيّة!

فما أن جلسنا وإلاّ ويُطرق الباب مرّة أخرى فأقوم فإذا فيه سمبوسة .. وبعد

هل شاهدت الأطباق الطائرة في مكة ؟

قليل يُطرق مرّة أخرى ثمّ مرّة أخرى .. وفي جميع الأطباق "سمبوسة" وبأنواع وطعوم مختلفة!

جعلت أمّي تضحك وتقول: يا رب هذه السمبوسة باقي العروسة! ضحك الجميع عليّ وأنا لا آبه بكلامهم فقد أتاني ما يشغلني!

ومع الأذان يُطرق الباب .. فقامت إحدى أخواتي لفتح الباب ولكن هذه المرّة رجعت ومعها فتاة جميلة من بنات الجيران وقد أعياها التعب من توزيع الأطباق على الجيران .. فأصرّت أختي عليها بالدخول لتفطر معنا.

فلمّا وقفت علينا أختي المشاكسة قالت: أمّي جاءت العروسة!

فخجلت الفتاة وخجلت معها! ضحك الجميع ورحبت بها أمّي وأجلستها وأطعمتها، فقد كانت تجيد التعامل بفنّ مع الصغار.

ودارت الأيّام ومضت السنون: حتّى جاء يوم فرحي وزواجي .. فإذا بتلك الفتاة الجميلة الخلوقة هي من نصيبي وشريكة حياتي وقد حفظت كتاب الله !

ومن كان يعلم ما قدّر لي في السماء في ذلك اليوم؟!

أصرّت عليّ أمّي وزوجتي أن أطعم الناس "السمبوسة" في زواجي! خفت في البداية من عدم تقبّل الحضور للفكرة .. ولكنّي عزمت وأجبتهما لطلبهما!

وبعدها أصبحت من عادات أهل مكّة وضع "السمبوسة" و "الطرمبة" في ولائم الأفراح.

فسبحان من يجيب الدعوات! ويحقق الرغبات! وسبحان من يعلم ما في النيّات!

مَـاجد الرياحين !

.. مساجد الرياحين ..

كنت أحلم كثيراً بحجّ بيت الله الحرام! أتأمّل في كلّ من حولي في سنّي أجده قد حج، وبقيت أنا لوحدي أتجرّع الغصص والآلام وأرسم الأماني والأحلام كلّما اقترب موسم الخيرات وهبّ نسيم المغادرين إلى البيت الحرام ..

يؤلمني كثيراً ذلك السؤال الذي يطرح عليّ بالتحديد منذ عشرين عاماً .. ولا أجد له جواباً مقنعاً .. يا فلان هل ستحجّ هذا العام؟!

أصبحت أتهرّب من الناس كلّما اقترب ذلك الموسم!

شجّعني أحدهم كي أحجّ معه وأعمل في نفس الوقت .. ترددت كثيراً في أوّل الأمر، لأنّه أخبرني أنّه سيتركني أوّل ما يجد لي عملاً .. ولكنّي تشجّعت أخيراً ووافقت ..

مضيت معه وأنا لا أملك قوت يومي، وكان يتكفّل بأكلي وشربي!

تيسّر لنا الوصول إلى مكّة، لم أصدّق أنّي في يوم من الأيام أرى الكعبة! ولكنّ الفضل بيد الله أن جعلني ممّن لبّى دعوة إبراهيم عليه السلام.

ذهب بي صديقي إلى إحدى المستودعات بمكة كي أعمل «حمّالاً» ثمّ تركني ومضى .. فكنت آكل وأشرب وأنام في ذلك المستودع .. وأنا أنتظر متى سأذهب إلى الحج ..

كنت أصلّي بمسجد قريب من المستودع!

مَـاجِد الرياحين!

أحببت إمام ذلك المسجد فقد كانت كلماته ودروسه بعد الصلاة رائعة جدّاً .. استفدت منه علماً كثيراً في مناسك الحج وغيره .. تمنّيت أن أصبح مثله.

بل أحببت كلّ من في المسجد لتعاونهم وتكاتفهم وسلامهم عند دخول المسجد .. وعلى كلّ من قابلوه عند خروجهم من المسجد! حتّى صغارهم تعلّمت منهم الآداب الرائعة .. شيء رائع لا أكاد أراه في دياري.

من بين المصلّين أحببت رجلاً يعلوه النور .. دائم البشاشة والسرور .. قد شاب عارضاه في الإسلام .. بل كان كلّ من في المسجد كباراً وصغاراً يحبّونه.

كان يحضر معه دائماً نبت (الريحان) بكمّيات كبيرة ويضعه في جانب المسجد حيث تعبق رائحته الفوّاحة فتملأ جنبات المسجد ..

كان الجميع يتهافتون على (الريحان) بعد الصلاة، ويتقاسمونه فيما بينهم .. إذا لم يكفيهم!

كنت أجمّع كلّ ما آخذه في كيس من القماش وأضعه بقرب رأسي وأشمّه عند النوم..

في يوم من الأيام لم أجد نصيبي من (الريحان) فقد انتهى سريعاً .. فلاحظَني صاحب الريحان فوضع يده على كتفي وقال تعال معي ..

مَـاجِد الرياحين!

اعتذرت منه بسبب العمل .. فقال لي أين تسكن؟ فخجلت من الجواب فأشرت إلى المستودع ..

هشّ وبشّ في وجهي وتركني ومضى..

وقبل صلاة العشاء جاءني المستودع ومعه مجموعة من «الريحان» فرآني وأنا أحمل الكراتين الكبيرة .. كدت أن أسقط بالكرتون خجلاً منه!

ولكنّه أقبل إليّ ليساعدني على حمله معي .. ما أعظمكم يا أهل مكّة يا أهل الشهمة والنخوة !!

وضعت الكرتون بسرعة في مكانه، ثمّ ذهبت إلى كيسي المليء بالريحان اليابس ثمّ أقبلت عليه كالطائر الذي يرفرف فوق حبّات القمح يريد بغيته!

سلّمت عليه بحرارة واحترام .. تلعثم لساني لا أدري كيف أشكره أم كيف أعبّر عن شكري له وأنا لم أر في حياتي مثل هذه الأخلاق .. كأنّي بالفعل أعيش في زمن غير الزمان الذي أعيش فيه .. بحق أنتم أحفاد الصحابة وأهل الكرم يا سكّان البيت والحرم!

ناولني (الريحان) ففتحت كيسي ليضعه فيه، فرأى فيه كومة من الأغصان اليابسة! فسألني: ما هذا؟ فقلت: أجمع فيه «الريحان» لآخذه إلى دياري! وأشمّه كي أتذكّر مكة وأهلها الطيّبين على الدوام!!

مَاجِد الرياحين!

تأثّر جدّاً من كلامي وموقفي هذا، وصوّب النظر في الكيس مشدوهاً! ولم يطل كثيراً في الوقوف معي ألقى الريحان في كيسي على عجل! ثمّ قال لي كلمةً واحدة فقط: نتقابل في صلاة العشاء في المسجد فقد اقترب الأذان!

مضى إلى المسجد وتركني مع (الريحان) الجميل .. رزقنا الله من رياحين الجنّة.

بعد صلاة العشاء كنت أنتظره عند باب المسجد حيث طلب مني مقابلته! وبينما أنا أنتظره، رأيت صاحب المستودع خارجاً من المسجد، فأسرعت وتركت المكان واتجهت للمستودع .. ولكنّ كان نداؤه أسرع منّي! يا فلان: تعال .. خفت وارتعدت فرائصي! فعدتّ إليه وأنا لا أدري ما التوبيخ الذي ينتظرني!

أقبلت إليه ورفعت رأسي .. فإذا به يهديني ابتسامةً عريضة نزلت كالماء البارد على قلبي!

فقال: اذهب وأحضر كيسك وأنا أنتظرك؟ قلت: أيّ كيس؟! فقال: كيس الريحان!!

مضيت وقد لعب الشيطان في عقلي بالظنون السيّئة تجاه صاحب «الريحان» الذي ربّما اشتكى لصاحب المستودع عنّي وعن كيسي، وأنا لا أدري ما عقابي الآن!

مَـاجد الريـاحيـن !

رجعت إليه بكيسي، وأنا أفكّر كيف أتخلّص من كيسي!!

وصلت إليه! فكما توقّعت رأيت صاحب الريحان عند سيّارته يكلّمه، وصاحب المستودع مطرق برأسه لا يرفع بصره إليه من شدّة التأدّب معه!

سلّمت عليهما .. فرحّب بي صاحب «الريحان» ثمّ قام صاحب المستودع بفتح الباب للشيخ فأركبه، ثمّ قال لي: اركب معنا! أحسست بنوع من الطمأنينة!

وصلنا عند منزل فخم يحوطه بستانٌ رائع جدّاً وأشجار متناسقة! نزلنا من السيارة فأخذ صاحب (الريحان) بيدي وبدأ يداعبني: تبيع كيسك لي؟! وأنا من الخجل لا أردّ عليه!

تقدّم صاحب المستودع ففتح لنا الباب فهبّ نسيم من داخل المنزل كاد أن يطير بعقلي من رائحة الريحان الفوّاحة! ثمّ قال: تفضّل يا أبي!!!

فأدركت حينها أنّ صاحب الريحان هو «صاحب المستودع» وهذا ابنه الكبير!

فقلت: لا إله إلاّ الله! ما هذه بأوّل أخلاقكم السامية يا أهل مكّة!

جلسنا في مجلس يحوطه الريحان من كلّ مكان! جلست أتأمّل في روعة الجنان!

بدأ الصغار يقبلون على الشيخ ويقبّلونه وهو يلاطفهم ويداعبهم!

ثمّ قدّم لنا طعام العشاء .. فأكلت طعاماً لم أذق في حياتي مثله!

مَـاجِد الرياحين !

وبعد العشاء: طلب منّي الشيخ الكيس فناولته له! فسلّمه لابنه البار، فقام وألقى ما فيه، ثمّ دخل بالداخل وخرج وهو مملوء فسلّمه لوالده!

فقال لي الشيخ: يا ولدي خذ هذا الكيس معك وأنت راجع إلى ديارك! فإنّه سيذكّر بمكّة دائماً وبأهلها! بل سيذكر بالجنّة .. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:/ ((لا تردوا الريحان .....))

فتحت الكيس فإذا فيه بذور شجرة الريحان! كدت أطير من الفرح وشكرته من أعماق قلبي!

ثمّ قال ولك كيس ثانٍ عندنا بعدما تنتهي من أداء فريضة الحج!

رجعت بعد الحج وأكملت عملي في المستودع، وعندما حان موعد سفري، صليت الصبح في المسجد، ناداني الشيخ وناولني «الكيس الثاني» فإذا فيه خمسة أضعاف راتبي، ثمّ قال لي: جهزت لك سيارة توصلك إلى ديارك! في أمان الله ولا تنسنا من دعائك! قبلت رأسه أودّعه وأنا أبكي على فراق هذه القلوب الطيّبة ..

عدتّ إلى دياري وملئت داري بشجر الريحان، وبدأت أوزّعه في جميع مساجد قريتي والقرى المجاورة .. حتّى عرفت مساجدنا بـ (مساجد الرياحين) أمّا أنا فلقّبت بـ (صاحب الريحان) !!

حتى العنكبوت ؟ يا عم ياقوت ؟

.. حتى العنكبوت ! يا عم ياقوت ..

ستبقى مكّة هي عاصمة الثقافة الأولى في العالم .. وسيبقى لها رمزها الخالد عبر التاريخ ..

كثيراً ما أجلس مع أصحاب والدي في الصفّ الأوّل في المسجد الحرام وخاصّة في صلاة العشاء عندما كنت أذهب إليه لأرجعه إلى البيت .. وكنت أتأمّل فيمن حوله من الناس فإذا بهم شعوبٌ وقبائل!

كنت أجد عظمة هذا الدين يتجسّد في هذه البقعة بالذات! كيف جمع الله هؤلاء مع اختلاف ألوانهم وألسنتهم وفطرهم على حبّ هذا البيت العظيم ..

صدق الله حين قال: « فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم » فكيف لو قال فاجعل أفئدة الناس كلهم وليس بعضهم، ماذا تتوقّع حينها!

كان من بين جلساء والدي رجلٌ كبير في السنّ يدعى (عم ياقوت) رجل جاور البيت من أجل العبادة لا تراه إلاّ قائماً مصلّياً أو طائفاً أو تالياً لكتاب الله ..

كان والدي يحبّه كثيراً وكان يأمرنا بإيصاله إلى بيته على طريقنا ..

كنت جالساً بقربه يوماً من الأيّام، فطلب منّي أن أحجز مكانه ليجدّد وضوئه، فوجدته يخلع جواربه فنظرت إليه مستغرباً فقد لبس أربعة جوارب في كلّ قدم! والأيّام أيّام صيف!

حتى العنكبوت

يا عم ياقوت ؟

فلمّا عاد سألته عن كلّ هذه الجوارب التي يرتديها .. فقال بتعبيره البسيط وكلامه الركيك، ولكنّه يحمل في طيّاته إيماناً وتقديساً وتعظيماً لبيت الله الحرام: أنا ألبس هذا لأنّي أخاف أن أؤذي الطائفين بظفري وخشونة قدمي أثناء الطواف .. فتشهد عليّ الكعبة أمام الله بذلك فيحاسبني الله قائلاً: لمَ آذيت من استجار ببيتي فيعذّبني!!

وضعت يدي على خدّي وأنا لا أكاد أتصوّر ما يحمله هؤلاء في قلوبهم من قيم حول تعظيم بيته المحرم وإلى هذه الدرجة!

ومرّة سألته عن وضع حذائه خارج الحرم ألا يخشى عليه من الضياع؟ فقال: كان بنو إسرائيل يخلعون نعالهم خارج حدود مكة ويدخلون البلدة المحرّمة حفاةً على أقدامهم تعظيماً وتقديساً للبلد الحرام!! ونحن أفضل منهم أفلا ينبغي علينا أن نترك أحذيتنا خارج المسجد الحرام كأقلّ تقدير؟؟!

وأعجب ما رأيته في يوم من الأيّام طلب منّي والدي أن أذهب مع (العم ياقوت) إلى بيته لغرض ما، فدخلت بيته فإذا به كأنّه مهجور .. وقد عشعش العناكب في سطح الغرف وفي الأسياب!!

وبينما أنا أنتظره في السيب ليأتي بالغرض .. قلت في نفسي دعني أساعده في تنظيف بيته .. فتناولت مكنسة كانت بجواري .. فجعلت أنظّف سطح السيب من عشش العناكب!!

حتى العنكبوت

يا عم ياقوت ؟

وفجأةً رآني وأنا أنظّف السقف فسقط الغرض الذي في يده، وغضب منّي غضباً شديداً وجعل يصرخ عليّ وينهرني .. فلولا احترامه لي أو بالأصح لوالدي لكانت تلك التي في يديّ على رأسي من شدّة إنكاره لي ..

ثمّ قال لي أنا منذ ثلاثين عاماً في هذا البيت لم أوذها لأنّها سكنت في مكّة .. ونحن سكنّا في مكّة واخترنا جوار بيت الله فكيف يعطينا الأمان! ونحن لم نعط الأمان لمن اختارت جوارنا وسكنت في بيتنا ..

هل هي آذتك حتى تهدم بيتها؟! هل هي ضايقتنا في المأكل والمشرب وفي المسكن؟!

هذه مخلوقات في مكّة أعطاها الله الأمان .. فلا يجوز إزعاجها فضلاً عن قتلها!

تسمّرت في مكاني وأنا أقول في نفسي (حتّى العنكبوت .. يا عم ياقوت!) استسمحت منه وقبّلت رأسه وأخذت بعضي لأنقذ نفسي من هذا الموقف المحرج وخرجت مسرعاً ..

وأنا أقول في نفسي : قاموسك هذا يا عم ياقوت مفقودٌ في هذا الزمان !

بحقّ أنت مدرسة في احترام مكّة المكرّمة .. يا ليتنا نأخذ منك دروساً تطبيقيّة في احترام وتعظيم مكّة المكرّمة ..

ويا ليت أجيالنا القادمة تتعرّف أنّ هناك في مكّة من أمثالك «يا عم ياقوت»

حتى الحيوانات كانت تبكيك !

.. حتى الحيوانات ! كانت تبكيك ..

بدأ المنظر في التلاشي شيئاً فشيئاً بل أصبح نادراً ما ترى تلك الوجوه البريئة الجميلة الرائعة التي ما أحسبها إلاّ بنور القرآن مكتسبة!

أطفال في عمر الزهور وفي يد كلّ واحد منهم مصحفه في كيسه المصنوع والمفصّل من القماش .. ينسابون يوميّا كأسراب العصافير من زقاقنا القريب من المسجد الحرام كلّ يوم!

كنت أرقب بشغف ذلك المنظر الذي أراه قبل صلاة العصر تحديداً وهم ذاهبون إلى حلقات التحفيظ في المسجد الحرام .. أتابعهم عبر شاشة الرواشين – فتحات النافذة- المطلّة على بيت «خالة إحسان»

كان يعجبني من بينهم طفل جميل في الخامسة من عمره يأخذك منظره وحركاته البريئة بالحبّ تجاهه .. العصفور كان يبدأ بالصراخ، وتنتابه رعدة وخوف ويدخل في أخيه ويلتصق في ثوبه، كلّما اقترب من بيت «خالة إحسان» في منظر مضحك ولطيف .. والعجيب أنه هو الذي يسحب أخاه نحو بيت «خاله إحسان» ويرفض طريقاً غيره!! فإذا اقترب من بيتها يدفع أخاه بظهره كأنّه وسط قتال وهجوم! ويبدأ صراخه وعويله حتى يصل عند بابها .. فما أن يستلم نصيبه؟ بعدها لا تسل عن شجاعته في الهروب مثل الصاروخ!!

كان منظراً يضحك منه الجميع .. وأنزعج أحياناً من أذيّة بعض أصحاب أخيه له!

حتى الحيوانات كانت تبكيك !

مضت الأيّام وتوفيت جارتنا الصالحة «خاله إحسان» -رحمها الله- وبدأ المظهر يختفي .. حتى أنا لم أعد أهتم بالمنظر، فاهتمامات المرء تتغيّر كتغيّر السنين!!

بعد سنوات وفقني الله فتزوّجت وتركت زقاقنا الذي قضيت فيه مع بنات الجيران أجمل سني حياتي ..

حتى أتى ذلك اليوم الذي قدمت فيه لزيارتي الأسبوعية لبيت والدي .. وكانت الأيّام أيّام حج، فاضطررنا بسبب الزحام سلوك طرق داخليّة (وأهل مكّة أدرى بشعابها) وبينما نحن في بعض الحارات استوقفني منظر عاد بذاكرتي إلى الوراء أكثر من عقدين من الزمان .. رأيت ذلك المنظر الذي لطالما وقفت من أجله على الروشان كلّ يوم، ذلك المنظر الذي ذكّرني بالمرأة الطيّبة «خاله إحسان» وبأسراب العصافير!! نزلت منّي دمعة وأنا أقول بمسمع من أولادي وبناتي في السيّارة بصوت يتخالجه البكاء وملؤه الحب والرحمة «الله يرحمك يا خاله إحسان» كم لك من الأجر العظيم!

استغرب الأولاد من ذلك المنظر كما استغربوا من ترحمي وبكائي على «خاله إحسان» ومن هذه «خاله إحسان»؟ وما علاقة هؤلاء الأطفال المتجمهرين حول مجموعة من (البساس) والقطط بتأثّر أمّنا!!؟

فبادرتهم قائلاً يا أولادي: عمل الخير في مكّة لا حدود له والأجر فيه عظيم مضاعف .. كانت «خاله إحسان» إمرأة تركيّة عاشت هي وعيالها بقربنا، لا أتذكّر أنّها فاتها فرضٌ في الحرم، وكانت كثيرة الصدقة والإحسان للجيران، وتفقّد أحوالهم على الدوام .. كانت أمّاً للفقراء والمساكين .. وكم من مساجد بنتها هنا وهناك من نفقتها الخاصّة.

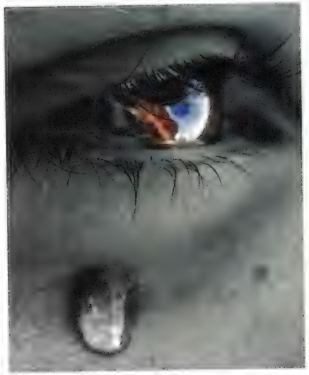

حتى الحيوانات كانت تبكيك !

ومع مرور الأيّام فقدت أسرتها واحداً تلو الآخر .. حتّى أصبحت وحيدة .. وبعدها أقعدت، وتبدّل حالها، ولا تجد من يهتمّ بها! بل كانت ترفض أن يخدمها أحد!

طلب منها بعض أقاربها الرجوع إلى بلادها فرفضت ترك مكّة .. وكلّها أمل أن تدفن فيها كما تقول!

كانت «خاله إحسان» جمعيّة خيريّة لا تتوقّف عن عمل الخير مع أنّها مقعدة ... حتّى بدأت بمشروعها الذي كنت من المعجبين بنجاحه! حيث كانت تحبّ الصغار كثيراً ..

في كلّ يوم عندما يحين موعد حلقات تحفيظ القرآن في العصر، ويبدأ الصغار من كلّ حارات مكّة كأسراب العصافير يتّجهون نحو الحرم، تخرج عند بابها تستقبلهم بالريالات المعدنيّة والحلوى وتوزعها عليهم!

فما أن تنتهي منهم! إلاّ وتبدأ بعدها بمشروع آخر وهو إطعام القطط، وكانت تجتمع عندها القطط بأشكالها وأنواعها من كلّ مكان وبأعداد مهولة! ولا يفوتها موعد دعوتها لطعام الغداء عند «خاله إحسان» فتأتي من هنا وهناك، من قبل موعد الوجبة! حتى لا يفوتها نصيبها!

في حين تجد بعضها اتخذت مركازاً وملجأً دائماً عند بابها .. بل وتتحكّم كالقاضي على صاحباتها..

بل كانت دائماً تزاحم «عصافير القرآن» في حصّتهم وموعدهم مع «خاله إحسان» وتضايقهم وأحياناً تهجم عليهم ..

ولو نطقت لنادتها «البساس»: «ماما إحسان» من حبّها لها – ضحك الجميع

حتى الحيوانات كانت تبكيك !

وهم في شوق لإتمام القصّة- ولكنّا وصلنا بيت والدي! فرفض الأولاد النزول من السيّارة حتّى أكمل القصّة! ولكنّي قلت لهم دعوني أريكم بيت «خالة إحسان» أوّلاً!

فنزلوا مسرعين وبهذا نجوت من تأخري على والديّ .. فأنا على شوق لهما أكثر من شوقهم «لقصّة البساس»

أردتّ دخول البيت فوقفوا أمامي كلّهم قائلين: أوّلاً «بيت خالة إحسان»!!

لم أجد مناصاً من التهرّب منهم غير أن أكمل لهم القصّة .. فأخذتهم عند بيتها المهجور الذي لم يترك أثراً لذكرياتها -رحمها الله- غير تلك الأواني المبعثرة هنا وهناك! والتي كانت تطعم بها «البساس» و تسقي بها «الحمام»!

وكانت هذه عادات أكثر أهل مكّة، فقد كانت شرفاتهم لا تخلو من أبراج للحمام تطعمها وتسقيها!! بل ترى إلى الآن من أعيان مكّة من تولّى أمر سقاية الحمام وإطعامها في بعض الأرصفة الكبيرة في مكّة! ويقومون بأنفسهم كلّ يوم بمعاهدتها!

أخذتني العَبرة! وأنا أتذكّر يوم وفاتها، وقد حضر الإسعاف عند صلاة العصر، وتجمهر أهل الحي حول بيتها .. كما تجمهرت «عصافير القرآن» بأعدادٍ كبيرة، والكلّ يبكي ويترحّم عليها ..

أمّا «البساس» فلا تسل عن كثرتها داخل بيتها وخارجها وبين الناس وعلى الجدار وقد ملأ مواؤها الفضاء بشكل مستغرب .. وكأنّها تبكي على من رحمتها وعطفت عليها طوال تلك السنين .. وكأنها أتت لتشيّعها ولتودّعها والحزن يخيّم عليها !

أقلّوها سيّارة الإسعاف! وقد تجمّعت «البساس» حول السيّارة .. فانطلقت وانطلقت خلفها بأعداد كبيرة وكانت تجري لتودّعها .. وكأنّها تبكي وتقول: لمن تتركينا يا «خالة إحسان»!

كان موقفاً مؤثّراً للغاية بل مهيباً

حتى الحيوانات كانت تبكيك !

لا يستحقر أحدٌ جلالة هذا العمل التي كانت تقوم به «خاله إحسان» فلا يدري الإنسان ربما بدعوة قطة من هذه القطط وشكرها لها تدخل الجنّة وتمشي على الأرض مغفور الذنوب مستور العيوب ..

قاطعني أحد أولادي قائلاً: وهل تدعو الحيوانات ربّها؟!

قلت: بل دعاؤها لا يرد!!

فالحيتان في بحارها والنمل في جحرها تدعو وتستغفر لمعلّم النّاس الخير .

وهذه نملةٌ استلقت على ظهرها ورفعت قوائمها تستسقي ربّها .. فلمّا سمعها سليمان عليه السلام قال: ارجعوا فقد سقيتم بغيركم!

وهذه بغيّ من بغايا إسرائيل سقت كلباً واحداً فقط -وهي تمتهن الفاحشة- فتحوّل اسمها من سجل أهل النار إلى سجل أهل الجنّة، وغفر الله إسرافها على نفسها بالمعاصي والسيّئات ..

فكيف لو كان هذا الحيوان في مكّة .. والحيوانات في مكّة محترمة معظّمة فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تخويفها أو حتّى عن إزعاجها ((ولا ينفر صيده)) فكيف بصيده وقتله؟! .. وبالعكس كيف بإكرامه وإطعامه؟!

بل كيف بترويع البشر في مكّة .. وبالعكس كيف بإكرامهم وإطعامهم؟!

بل وكيف برعاية الوافدين والحجاج والمعتمرين وخدمتهم؟!

رحمك الله يا «خاله إحسان» حتى الحيوانات تبكيكِ!!

ورحم الله حالنا من يبكينا؟؟

بنت الجيران ! على الروشان ..

.. بنت الجيران ! على الروشان ..

كانت بيوتات مكّة متقاربة وتتهادى بعضها على بعض من شدّة تلاصقها، وتتخلّلها تلك الأزقّة المتشعّبة في تقاطعاتها من كثرتها حتى غدت مثلاً شعبيّاً يردّده الصغير والكبير «أهل مكّة أدرى بشعابها» لأنّها تنقلك من مكان إلى مكان من خلال طرق مختصرة لا يعرفها إلاّ أهلها!

ومن تلك الأزقّة تبدأ حكايات الزمان .. وعلى قناديلها المعلّقة تقف ذكريات الأجداد لتضيء للناس طريق القيم والأخلاق السامية التي يتّسم بها ساكن مكّة المكرّمة منذ غابر الأزمان!

كانت تلك الأزقّة تمثّل شريان الحراك المجتمعي في مكّة المكرّمة ففيها تنصب مسارح الأحداث لتجسّد ذلك التواصل الاجتماعي بين أهلها في أبهى حلّته ..

وعليها تنشد ملاحم النخوة والشهامة وصفاء القلوب والنيّات التي ترتسم على جبين أبطالها!

وإذا رفعت بصرك من تلك الأزقّة نحو السماء ترى تلك الرواشين في العلّيّة وقد تصافحت وتعانقت مع بعضها .. لترسم صورةً أخرى من التواصل الاجتماعي مع ربّات البيوت وستّات الحواري من خلال تلك الأبراج الخشبيّة.

بنت الجيران على الدوشن !

وعلى دكّة الحارة تجد عمدة الحارة وإمام المسجد وكبار الحي يجلسون فيها للتشاور في أمور الحارة وفضّ الخصومات .. بل وتحديد المهور ومساعدة الزوجين وتوزيع المهام على أهل الحارة في أفراحها وأتراحها.. تصدر منها!

كان الزواج في الحارة بمثابة حدث مهم يهتمّ به جميع من في الحارة ويحضرونه ولا يتغيّبون عنه مهما حصل .. بل يغلقون دكاكينهم ويوقفون أسفارهم من أجل المشاركة فيه!

لم تكن هناك مطابخ مثل هذه الأيّام، فكان أهل الحيّ كلّهم يجتمعون في تقطيع اللحم وطبخه ونفخه وإطعام المدعوّين فيه .. كان بحق حراكاً مجتمعيّاً رائعاً ..

أمّا أطفال الحارة فهم زينة مكّة ومصابيحها! فلهم في كلّ مناسبة في مناسبات حياتهم فرحة ودعوة وأكلة وجَمعة .. عند الولادة وعند الختان وعند تختيم الحروف الهجائية وعند تختيم جزء عمّ ..

أمّا عند تزويج الفتاة فلهم عاداتهم المجتمعيّة حيث تجتمع عندها صويحباتها في دقّة الباب والغُمرة والدَّبَش والمِلكة والشّبكة والزواج في سلسلة تعيش فيها الفتاة أروع أيّام حياتها وتحسّ فيها معنى الاقتران بالحلال .. ولن تنساها طول حياتها .. وتحلمها كلّ فتاة .. فلا كوافيرات لتجهيز العرائس ولا مشاغل نسائيّة تجلب المتاعس!

بنت الجيران على الروشان !

ومن الروائع التي تُذكر ويستشهد بها ذلك الصفاء النفسي التي لا تعرف خبثاً ولا تنطوي على سوء نيّة ولا طويّة بين الأطفال حين يلعب الأولاد وبنات الجيران كالأخوات مع بعضهم .. فلا قنوات ساقطة ولا غزوٌ فكري من خلال أفلام الكرتون والمسلسلات المدبلجة ..

لدرجة أنّهم يستنكرون الزواج من بنات الجيران! وعلى مفهومهم كيف يتزوّج الإنسان من أخته! أو من بنات عمّه وخاله ..

في يوم من الأيّام قرّرت أمّي أن تخطب لي بنتاً من بنات الجيران .. فرفض والدي رفضاً شديداً، بل كان كلّ من في البيت في صفّ والدي .. حتّى قررت الهروب من البيت .. تعبيراً عن رفضي أيضاً «كيف أتزوّج بنت الجيران التي أراها من صغرها كلّ يوم على الروشان»

أمّا الاعتراض على الوالدين فهذا من الكبائر عندنا ولا نملك قراراً فوق قرارهما .. وقد تربّينا على احترام رأيهما في كلّ الأحوال.

كبرت المشكلة حتّى تدخّل كبار الحارة .. وقد كان موقف أمّي صارماً للغاية، وهكذا جلست بدون زواج حتّى انتقل بيت الجيران في الحارة المجاورة ..

وبعدها ذهبت أمّي وخطبتها مرّة أخرى .. تزوّجتها رغماً عنّي، فجلست مدّةً وأنا أستحي من النظر إليها، وأتذكّر دائماً حين كنّا نلعب سويّاً مع بنات الجيران .. حتّى جلسنا فترة على هذا الحال إلى أن تقبّلنا الوضع أخيراً ...